**المحاضرة الثانية: العمران الصحراوي**

للعمران في الصحراء جذورا تاريخية عميقة، مظاهر الحضرية والتمدن كانت مألوفة في القصور والمدن التاريخية منذ مئات السنين، ازدهرت المدن التاريخية كمحطات للقوافل التجارية التي كان مسرحها الفسيح بين ضفتي البحر والصحراء منذ 10 قرون  **و**جذور أصيلة من خلال ما يعرف بالقصور الصحراوية، والتي بنيت في الأساس على توافق بين ثلاثة عناصر رئيسة هي:

**- الأرض، الماء، المقدس.**

**ـ القصر :** تعد القصور ظاهرة معمارية فريدة يتميز بها الجنوب الجزائري وهي رموز ومعالم حضارية هامة جدا تترجم بعمق تاريخ مناطق برهنت عبر القرون على مدى قدرة الإنسان على التأقلم، وقد عرفت هذه المعالم تطورات عديدة منذ العصر القديم ومازالت إلى يومنا هذا، ولكنها ليست معزولة عن تقاليد معمارية انتشرت في منطقة المغرب العربي في أجمل صور من الإبداع الهندسي البربري ابتداء من الأراضي الليبية المتاخمة عبر مسالك جبل نفوسة، مارة بغريان فيفرن، فجادو، فكابو، فنالوت فمطماطة ثم تتجه غربا نحو منطقة وادي سوف ووادي ريغ ووادي مية ثم نحو منطقة سهل ميزاب، ومنها يتواصل هذا الخط باتجاه المنطقة الجنوبية من سلسلة الأطلس المغربية، وأكثر من ذلك يمكن القول أنها ظاهرة ميزت كامل شمال إفريقيا، ففي مصر كثيرا ما يسمع كلمة قصر في الصحراء الغربية تطلق على أماكن وبلدان متعددة، في جهات مختلفة فالقصر بالداخلة، والقصر بالخارجة، وقصر الغويطة، وقصر زيان، والقصر بالبحرية، وقصر الفرافرة، والقصر بمرسى مطروح وقصر الروم في واحة سيوة، كما لا يمكن إغفال صحراء موريتانيا التي أسست بها هي الأخرى قصورا على درجة كبيرة من الأهمية، وعلى سبيل المثال لدينا قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط، والتي تعد الجيل الثاني لمحطات القوافل كونها أسست ما بين القرنين 12م و13م بعد اندثرت مدن الجيل الأول مثل أودغست وغانه وأزوكي.

تعني كلمة القصر موقع محصن، ويعرف القصر على أنه قلعة بناها البربر للاحتماء بداخلها من هجمات المقاتلين، وهي نموذج لنوع من التجمعات السكانية في المناطق الصحراوية، والقصر هو مؤسسة إنسانية متلاحمة، كثيفة، ومرتفعة (المسكن مؤلف من طابق أرضي وطابقين)، وهو ذو شكل مربع أو مستطيل وهو مغلق بواسطة سور متواصل ومصمت مزود بأبراج ركنية Tours d’angle، ومزود بمدخل وحيد والذي من خلاله تتحدد جميع العلاقات مع الوسط الخارجي، ولكن هذا التعريف نجده لا يمثل جميع أنواع القصور بشمال إفريقيا، حيث هناك من يعرفه بأنه مؤسسة فلاحيه اجتماعية وعسكرية في ذات الوقت، حيث يعتبر مخزن أو بالأحرى مجموعة مخازن، حيث يضم عدد من الغرف "غرفة" موزعة على طابق أو عدة طوابق تحيط بفضاء مركزي، بشكل متناظر في الغالب، حيث الجدار الخارجي في بعض الحالات يتجاوز 10م ارتفاع، وهي حاضرة بشكل موحد ومتواصل وتعطي للقصر شكل القلعة، حيث يعد مخزنا لسكان الجبال وتكون الغرفة فيه ذات شكل نصف أسطواني يجتازها باب، وفي حال كانت المساكن كهفية.Troglodyte تكون مشكلة من صفي خلايا تتابع في مغارة واحدة، وكثير من هذه القصور تعود للعصور الوسطى خاصة إلى تاريخين متصلين، الأول في المنتصف الثاني من القرن 11م ونهاية القرن 15م، وهناك تعريف مفاده أن القصر أو الڤصر هو تلك المجموعات السكنية التي تشغل أحيانا مساحات صغيرة وأخرى كبيرة وتكون محصّنة أو على الأقل تقع فوق أماكن مرتفعة بالإضافة إلى قربها من الأودية والواحات، كما يعطي باحث آخر تعريفا يعتمد على شكل القصر في حد ذاته، حيث يذكر أن القصر هو مدينة محصنة وجمعها قصور، واحاتها غالبا ما تكون محاطة بأسوار، وساحاتها تتوفر على مخازن، ومتاجر للقبائل الرحل التي تحتفظ فيها بالحبوب حين يغادرون المكان بحثا عن الكلأ، وهذا ينطبق على القصور التي يتخذها أصحابها الرحل كمخازن للمحصول، كما عرفها كابو راي.Capot-Ray بأنها مساكن ريفية بالصحراء مشيدة بالحجارة والطين، فيما يرى محمد حسن أنها تطلق على التجمعات السكنية المحصنة في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية، ببلاد المغرب كما ضبط تاريخ ظهورها في العصر الوسيط حيث يشير إلى النصف الثاني من القرن 11م ونهاية القرن 15م.

كان القصر فضاء لتلاقي العرب والبربر، فالبربر يعتمدون فلاحة مستقرة مما جعلهم يصبحون سكان للجبال، أما العرب فبما أنهم رعاة بدو سكنوا السهول ، اذ هجر البربر إلى عدد من القصور وتحصنوا بالجبال، وبهذا نجد: قصر في السهل وقصر الجبل، في الساحل أو في البرية، وهناك قصر الرباط، وقصر خزن المحصول، وقصر القرية، والنقطة المشتركة بينها جميعا وجود تحصين يستغل في حماية القصور من البدو أو الهجمات البحرية وهذه الأخيرة في الساحل التونسي كما سبق وأشرنا.

وعليه يمكن اعتبار القصر مدينة صحراوية، فهناك من يرى أنها لا ترقى إلى المدينة وتعقيدها، حيث ترتب من حيث الأهمية العمرانية والوظائف في درجة أقل من المدينة التاريخية، بل هناك من يستشف من كلامه أن القصر أقل من القرية.

إذ يقصد بالقصر الهيكل العمراني لمجموعة من الناس في موقع وموضع يتوفران على متطلبات الحياة

إذا فالقصر يقع من حيث الأهمية بين القرية والمدينة، كما أنه فصل بين نوعين من القصور فهناك قصور خاصة وأخرى عامة، حيث تأتي القصور الخاصة في مرتبة واحدة مع القرى من حيث الأهمية، فلم يجعل لها حريما مثلها مثل القرية، وهنا يمكن أن نفهم كلام الإدريسي في حديثه عن إحدى القرى بأنها مؤلفة من عدة قصور صغيرة وكان على ما نعتقد يقصد أنها مؤلفة من قصور خاصة .

لقد كان أول مسكن ثابت أقامه الإنسان الصياد بالصحراء تلك التي خصصها للأموات حيث يلجأ إليها الأحياء لاستحضار الأموات ومع مرور الوقت تحولت هذه الأماكن الدينية إلى تجمعات بشرية.

ولغرض إنشاء مدينة بالصحراء يذكر إبن خلدون: يجب لحمايتها من ظروف الجو القاسية أن يختار لها موضع في مكان هواءه جيد ونقي، كما يرى Masqueray سببا آخر وهو إنشاء هذه المدن على قمم الهضبات وعلى نهاية المنحدرات لتتشمس جيدا في الشتاء وتحتمي من الرياح وفياضانات الواد وكذا الهجمات، وهكذا بدأت النواة الأولى لنشأة التجمعات السكنية بالصحراء إلى أن وصلت إلى شكلها النهائي المسمى "قصر.